

التغير المنهجي عند " عبد الملك مرتاض " من الانطباعية إلى السيميائية

The methodological change in (Abdul Malik Murtad)
(from the impressionistic approach to semiotics)

مرسلي فايزة^{1*}،

المشرف : بوصوري ناصر² ، المشرف المساعد : منادي محمد الحبيب³

¹ المركز الجامعي آفلو (مخبر اللسانيات التداولية وتحليل الخطاب الأدبي) (الجزائر)،
(f-morsli@cu-aflou.edu.dz)

² المركز الجامعي آفلو (الجزائر)، (n.boussouri@cu-aflou.edu.dz)

³ المركز الجامعي آفلو (الجزائر)، (m.menadi@cu-aflou.edu.dz)

تاريخ النشر: 2024/12/21

تاريخ القبول: 2024/12/10

تاريخ الإرسال: 2024/08/20

ملخص:

شهدت ساحة النقد الجزائري زخماً متعدداً من مناهج تحليل الخطاب، التي تسعى لاستكناه بواطن النصّ الأدبي، وتتفاضل هذه المناهج فيما بينها بحسب تنوعها وتنوع تركيبة العملية النقدية المتشكّلة من الناقد، والعمل الأدبي، والمنهج، ويستمدّ كلُّ منهج مصداقيته من قدرته على استنطاق النصوص وإخراج مكنوناتها وأسرارها، وذلك وفق الخطوات الإجرائية المحددة لكل منهج. وقد كان للناقد عبد الملك مرتاض - رحمه الله - اهتمامٌ بالغٌ بالمناهج النقدية وكيفية تطبيقها على النصوص الأدبية (السردية منها والشعرية...)، وقد خصّص أغلب مقدمات كتبه ودراساته النقدية للحديث عن إشكالات المناهج المتنبّاة في التحليل الأدبي، وعياً منه بأهمية المنهج وخطورته معاً في الدرس الأدبي. كما عرفت مسيرته النقدية تنوعاً جماً في اختياراته المنهجية واستعمال أدواته الإجرائية، التي قامت على تتبع الدراسات الأدبية

* مرسلي فايزة .

العربية قديمها والحديث، وتتبع المناهج النقدية الحديثة، يُحَيَّن بها ما تقادم من أدوات المنهجية ويُسَير منها ما استجدَّ، حيث بدأ مساره النقدي بالمنهج الانطباعي، ليستقرَّ بعد ذلك ناقدًا سيميائيًا تفكيكيًا ... وعلى ضوء هذا التنوع المنهجي في تبني هذه المناهج والتَّنْظِير لها والبيان لآليات تطبيقها على النصِّ الأدبي، فضلاً عن الدَّعوة إلى تحيينها ومراجعتها يأتي بحثنا هذا لبحث في التحوُّلات المنهجية في التجربة النقدية لعبد الملك مرتاض، ونطرح من خلاله الإشكاليَّتين الآتيتين:

- ما هي مظاهر التَّغيُّر المنهجي من الانطباعية إلى السِّيميائية في التجربة النقدية لعبد الملك مرتاض؟

- وما هي أسباب التَّعدُّد المنهجي عنده في تحليله للخطاب الأدبي؟

الكلمات المفتاحية : النقد، المنهج، الانطباعية، السِّيميائية، عبد الملك مرتاض.

ABSTRACT :

The Algerian critical arena has competing approaches to analyzing discourse She learns the truth about the literary text They differ with regard to the diversity of the components of the critical process consisting of the various (critic, literary work, and method), Each method gains its credibility from the extent of its ability to read texts and extract their secrets. This is done through specific procedural steps. The critic "Abdul Malik Murtad" - may God have mercy on him - knew of an existing interest in critical methods and their application to literary texts (narrative and poetic...), He often devoted the introductions to his critical studies to talking about the problems of methods in literary analysis. Because it teaches you the lessons and participation together in literary studies, His critical path began with historically, then structural style, then semiotics to analyze interest. In light of this diversity in adopting approaches, theorizing on them, applying them to literary texts, and reviewing them... Our research seeks to examine the common transformations in the critical experience of "Abdul Malik Murtad." Through it, he raised the following two problems: 1 - What are the manifestations of practical change in the critical experience of "Abdul Malik Artad"? - What are the reasons for his methodological diversity in analyzing literary discourse?

Keywords: Criticism, method, impressionistic, Semantics, Abdul Malik Murtad.

مقدمة:

تتجسّد حقيقة المناهج النّقديّة المعاصرة في كونها وسائل مساعدة على سبر خبايا الظّاهرة الأدبيّة وليست غايةً في حدّ ذاتها، ففي المبتدأ كان الخطاب الأدبي ثمّ كانت بعده الممارسة النّقديّة، التي لازمتها في المبتدأ والمنتهى وتطوّرت إلى مناهج النّقْد المتنوّعة سياقيّةً كانت هذه المناهج أو نصّانيّةً، وذلك من خلال استظهار مقصدية الكاتب، واستقصاء تجلّيات الخطاب الأدبي، واستقراء الظواهر الفنيّة، المتوارية ضمن الفضاء النّصّي، والكامنة داخل العمل الأدبي. ومن أبرز هذه المناهج وأجلاها المنهج الانطباعي، والمنهج السّمائي، والمنهج التّفكيكي، والمنهج التّكاملي... وغيرها من المناهج، التي كانت جُلّها محلّ عناية النّاقِد عبد الملك مرتاض - رحمه الله - وموضع اهتمامه، وأحد أبرز أدواته الإجرائيّة في تشريح النّصّ وكشف خباياه، مع تحفّظه على هذه المناهج ورفضه للكثير ممّا تبناه منها، وذلك حدّ الدّعوة إلى رفض بعضها، كرفضه المنهج النّفسيّ وانتقاداته له، فضلاً عن سعيه الدّائب والحثيث للتأسيس لمنهج نقديّ جزائريّ، تتّضح معالمه الإجرائيّة، وتستبين أركانه النّظبيّة، ويكون المنهج الأنسب لدراسة النّصّ الأدبيّ وتحليل الخطاب، فيكون له به فضل السّبق وسبق التأسيس.

وتتظافر جُلّ الأبحاث والدّراسات التي تناولت المادّة النّقديّة الجزائريّة قبل عام (1961 م) على أنّها محاولات نزرة العدّ فقيرة الجدوى، لا تكاد تخرُج عن حدود أسوار الكتابات الفرديّة التي لا يجمعها مشروع واضح في التأسيس للنّقْد في الجزائر، فقد جاءت هذه المحاولات في شكل مقالات مبتسرة، يعوزها التّصوّر النّظريّ وينقصها الإطار المنهجيّ، وهي مقالات متناثرة على صفحات بعض الصّحف وثنايا بعض المجلات، كان يدبّجها جِلّة من الكتّاب الجزائريّين، ومنهم : رمضان حمود وأحمد رضا حوحو ومحمد البشير الإبراهيمي ومحمّد السّعيد الزّاهري وابن باديس وعبد الوهّاب بن منصور وحمزة بوكوشة وابن ذياب أحمد، وغيرهم من الكتّاب والأدباء والمشايع، الذين لم يُعرف عن أحدٍ منهم اشتغاله بالنّقْد أو اتّخاذه له صنعة⁽¹⁾.

وكان لهؤلاء - وغيرهم - مساهماتهم النّقديّة المتواضعة ضمن تجارب شخصيّة أملتّها عليهم طبيعة تكوينهم الأكاديمي أو اهتماماتهم البحثيّة التي تنحو منحى أدبيّاً يسعى لاستكناه بواطن النّصّ الأدبي، مع السّعي لتفكيك الخطاب، واستخراج دلالاته وإدراك غاياته ومعانيه ... إلا أنّ البدايات الحقيقيّة التي يُمكن

¹ - يُنظر : غليسي ، (يوسف -) : النّقْد الجزائري المعاصر من "اللائسونيّة" إلى "الألسنيّة"، (2002 م)، إصدارات رابطة الإبداع الثقافيّة، كليّة الآداب واللغات، جامعة قسنطينة، (الجزائر)، ص : 09 .

اعتبارها مبتدأ للتأسيس لمنهج نقدي في الجزائر إنَّما كانت بُعيد استقلال الجزائر، أي عَقِب سنة (1962م)، وفي هذا يعتبر " يوسف وعليسي " أنَّ السِّتِنِيَّات من القرن الماضي كانت هي البداية الحقَّة للنَّقد المنهجي في الجزائر، واعتبر كتاب أبي القاسم سعد الله الذي كتبه حول شعر محمَّد العيد « هو الباكورة الأولى للخطاب النقدي الجزائري الذي أخذ يتطوَّر ويتجدَّد بعد الاستقلال (1992 م) » (1) . وعرف النَّقد الجزائري سُبُلًا مختلفة، توزَّعت فيها المناهج بحسب مقتضيات كلِّ عقدٍ زمني ، فكانت سيادة النَّقد التاريخي في فترة السِّتِنِيَّات، ثمَّ عرف النَّقد الاجتماعي السِّيادة في السَّبْعِينات، حين كانت الاشتراكيَّة في نروتها، ليسود بعد ذلك النَّقد اللساني - بمختلف أشكاله - فترة الثَّمَانِينات، وذلك حتَّى يومنا هذا « في حين تخلَّلت هذه المراحل مناهج أخرى لم تستغرق إلَّا حيزًا نقديًّا محدودًا جدًّا كالنَّقد النَّفساني والنَّقد الموضوعاتي والنَّقد المقارن ... » (2) .

وقد عرفت مسيرة عبد الملك مرتاض النَّقدية مُسيرة لتطوُّر النَّقد الجزائري ، وشهدت مسيرته هذه تنوعاً كبيراً في اختياراته المنهجية وأدواته الإجرائية، فتبنَّى - خلال هذه المسيرة - ما استجدَّ من المناهج يُحْيِيها بتحيينها، ويُراجِعها بمراجعة منظرها لها، ويعمل على الإضافة إليها والتَّنْظِير لها والبيان لها والتَّغْيِير، والعمل بآلياتها والتَّطْوِير، مجرِّباً لها على النَّصِّ الأدبي، وقد تجلَّى هذا التنوع في كونه بدأ مساره النقدي باختيار الانطباعية منهجاً يُوافق ما كان عليه من انطباعات ذاتية على النَّصوص ، ثمَّ تحوَّل ناقدًا تاريخياً يبحث في النَّصِّ بمعنيَّة الرُّمْن ونفض التَّاريخ، ثمَّ انتقل بنويًّا فأسلوبياً، ليستقرَّ به المقام في آخر تجربته سيميائياً تفكيكياً ... ولسان حاله يقول: لا معرفة حقيقة تتحقَّق دون منهج، كما لا يعدُّو المنهج في حقيقته أن يكون: وسيلة بحث يسترشد به الباحث للوصول إلى غايته المحددة وأهدافه المقررة. ويتمثَّل لُبَّاب هذه الغاية في البحث عن الحقيقة. وهذا التَّغْيِير المنهجي الذي عرفته مسيرة عبد الملك مرتاض النَّقدية هو موضوع بحثنا هذا، نسعى من خلاله لتبيان مراحل تلك التَّغْيِيرات المنهجية التي اكتسبت تجربة عبد الملك مرتاض النَّقدية، ونرصد - من خلالها - مجمل مسيرته النَّقدية، وما تجلَّت فيه من الدِّراسات النَّظريَّة منها والتَّطبيقيَّة . مع بياننا لمظاهر هذا التَّغْيِير المنهجي وتعيين أسبابه ودوافعه، ونطرح من خلاله الإشكاليَّتين الآتيتين:

- ما هي مظاهر التَّغْيِير المنهجي من الانطباعية إلى السِّيميائية في التجربة النَّقدية لعبد الملك مرتاض؟
- وما هي أسباب التَّعدُّد المنهجي عنده في تحليله للخطاب الأدبي؟

¹ - يُنظر : وعليسي : النَّقد الجزائري المعاصر من "اللائسونية" إلى "اللائسنية"، ص : 191 .

² - المرجع السابق، ص : 191 .

ويهدف البحث في إجابته عن هذين التساولين إلى رصد المسيرة النقدية لعبد الملك مرتاض ، وبيان اعتماده لهذين المنهجين في دراساته المتعددة من خلال استقراء جملة من كتاباته النقدية . مع بيان الأسباب التي حملته على تغييره المنهجي وأدواته الإجرائية في تحليل النصوص الأدبية (الشعرية منها والنثرية).

1 - رصد المسيرة النقدية لعبد الملك مرتاض :

ألف عبد الملك مرتاض - رحمه الله - العديد من الكتب النقدية ، وهي لا شك تحمل بصمات توجهاته الفكرية في مسيرته النقدية، وتعكس اختياراته المنهجية - كأدوات للتحليل الأدبي - التوجه المنهجي الذي كان يتبناه، وما تمليه عليه اهتماماته من جهة وواقع ما يقوم به من تحليل وما تموج به الساحة من مناهج من جهة أخرى، ويمكن إجمال التوجه المنهجي العام عنده بانتقال من ساحة المناهج السياقية إلى باحة المناهج النصانية، والتي امتدت في بعض مؤلفاته من سنة (1981م) - تاريخ صدور كتابه المعنون ب(الخصائص الشكلية للشعر الجزائري الحديث) - إلى سنة (1990م) تاريخ صدور كتابه المعنون ب(القصة الجزائرية المعاصرة)، وهي مجموع المؤلفات التي شق بها عبد الملك مرتاض مرحلة جديدة مع المناهج النصانية الحديثة على أنقاض ما كان يستعين به من المناهج السياقية التي كفر بها بعد ذلك. ويضاف لهذه الكتب ما دبجه يراعه من كتب أخرى ومقالات نظر فيها وناظر، وشارك فيها في الندوات وحاضر، وسعى إلى التأسيس لأصول منهجه النقدي وبادر، وكان في كل هذا ينتقل من منهج لآخر، فيتعمد منهجاً حيناً وينقذه حيناً آخر، ويصح مسارات مؤسسيه أو يجاريهم فيه. ويضاف إلى هذه المؤلفات - أيضاً - سعيه فيها إلى السبق والتميز والطموح إلى تأسيس منهج نقدي جزائري، يتحقق به إكمال المسيرة النقدية التراثية في امتدادها العلمي، وفي هذا الطموح يطرح - بتشوفٍ للتحقيق - أسئلة تسير على خطى الأجداد فيقول: « وإذن، أفلم يأن لنا أن نطمح إلى أن يكون لنا نقد نحن أيضاً، كما لأجدادنا الأكرمين أحسن الله إليهم وإن حقاً لنا أن نطمح، فمتى يتحقق لنا ذلك؟ وهل سيتحقق...حقاً » (1).

ويشير عمّار بن زايد في كتابه الذي خصّصه لدراسة (النقد الجزائري الحديث) إلى أهمية المناهج النقدية في الدراسات الأدبية باعتبارها وسائل للنّقد يتناول في ضوئها الأعمال الإبداعية ويستخلص نتائجها، كما يؤكد أنه قد وقف في تتبعه للدراسات النقدية الأولى في الجزائر على مناهج ثلاثة ، المنهج التاريخي والمنهج التأثري والمنهج الفني (2) . وهو ما انعكس تطبيقاً في التجربة النقدية الأولى لعبد الملك

¹ - مرتاض ، (عبد الملك -) : في نظرية النقد، (2010 م) ، دارهومة ، (الجزائر) ، ص 22 .

² - يُنظر : بن زايد ، (عمّار -) : النقد الأدبي الجزائري الحديث ، (1990 م) ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، (الجزائر) ، ص 123 - 124 .

مرتاض، إذ إنَّ المتتبع لدراساته الأولى يلفيه يتناولها ببعض التَّاريخية، راصداً نشأتها أو تطوُّرها علاوة على بعض الآراء الانطباعية والذاتية التي تبرز فيها خلجات نفسه وتتجلَّى فيها ذاتيته وذوقه الخاص، ممَّا أسَّس لمسيرة عبد الملك مرتاض النَّدية، ويُجمل يوسف وغليسي ما مرَّ به عبد الملك مرتاض من المراحل المنهجية النَّدية القديمة ممَّا صنع مساره النَّدية في ثلاث مراحل هي (مرحلة الإقرار، مرحلة النفي والرَّفص، مرحلة الاضطراب)، إذ تتميز المرحلة الأولى بإقراره بمعياريَّة العملية النَّدية وممارسته للنَّد ضمن الأطر السياقية، أمَّا المرحلة الثانية وهي (مرحلة النقي)، فقد وجَّه فيها سهام نقده لنبد الأحكام النَّدية، وعدم اعتبارها منهجاً سليماً في النَّد، ليدخل بعد المرحلتين السَّابقتين في مرحلة الاضطراب المنهجي، أين تجلَّت بعض تناقضاته المنهجية بين ما يرفضه من حكم نظري، وما يُمارسه واقعاً إجرائياً على مدوّناته المختارة (1).

وهذه المراحل - على اختلافها - تُجسّد - في عمومها - الاضطراب المنهجي الذي شهدته تجربة عبد الملك مرتاض، مع بيانه وتوضيحه لأسباب تبني كلِّ منهج عند تطبيقه وكشفه لملاسات ذلك، وفيما يأتي من البحث عرضٌ لجوانب من هذا التحوُّل المنهجي عنده، نتلوه ببيان بعض الأسباب الدافعة لهذا التحوُّل، الذي لم يكن يعدو حدودَ التجريب المنهجي بما يتلاءم وطبيعة النصِّ وما تفرضه مستجدات السَّاحة النَّدية العالمية والعربية بله السَّاحة النَّدية المحلية الطُرية، التي كان أحد المؤسِّسين لها والفاعلين فيها تنظيراً وتطبيقاً. فالنَّد عند عبد الملك مرتاض لا يمثِّل جمالاً عقلياً ولا فنياً فحسب، وإنَّما هو في برزخ وسطي بين علم الفلسفة وفلسفة العلم يخلطُ هذا كله بلمسته الفنية ولغته الأدبية الخاصة، ممَّا يجعله على حافة كلِّ هذه الحقول دون أن يكون متلبساً بأحدها صراحةً ... فلمَّا كان النصُّ الأدبي لا يكشف عن مكنوناته إلا حين قراءته، كان من اللازم البدء بها (أي القراءة) لأنَّها المحرك الأساس للدراسة النَّدية بما يكون من الاعتماد على النصِّ الأدبي، الذي بدوره يُمثِّل تأثيراً محتملاً يتم التَّوصُّل إليه بفعل القراءة (2).

2 - التجريب النَّدية للمنهج الانطباعي :

لا تكاد تخلو دراسة نقدية من فكاك النَّد الانطباعي، إذ يبدأ ذلك من حدود الاختيار المنهجي لموضوع البحث أو مدوّنته المدروسة، والذي يكون غالباً من منطلق تأثرٍ مبدئي بالنصِّ المختار يحمل على اعتباره مستحقاً للنَّد، ولا يُمكن أن يكون هذا الاختيار إلى بدافع من انطباعات أولية ذاتية تعتمل في

¹ - يُنظر : غليسي ، (يوسف -) : الخطاب النَّدية عند عبد الملك مرتاض (بحث في المنهج وإشكاليَّاته)، (2002 م)، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، (الجزائر)، ص 97 .

² - يُنظر : فولفجانج ، (إيستر -) : فعل القراءة ، نظرية في الاستجابة الجمالية ، (1978 م)، ترجمة : د . عبد الوهاب علوب ، المجلس الأعلى للثقافة، ص 03 .

نفس الناقد وتثيره للعمل في هذا الموضوع دون سواه، ومن هذا المنطلق فقد كان المنهج الانطباعي هو الأساس في الكثير من الدراسات النقدية قبل أن تجبّه المناهج الأخرى التالية له، إذ تقوم الانطباعية على « أن يعيد الفنان أو الأديب الانطباع أو الأثر الذي حصل في نفسه كما أحسّ به، وفي الفن أن يعيد الرسّام أو النحات الانطباع الذي تركه فيه مشهد من مشاهد الطبيعة أو منظر من مناظر المجتمع. أمّا في الألب: أن يعيد الشاعر أو الكاتب الانطباع في شكل من أشكال الإنشاء، وكذلك في النقد الأدبي: أن يعيد الناقد الانطباع أو الأثر الذي تركه في نفس قراءة نصّ أو سماع قصيدة » (1).

وقد أدّت مشاعية الانطباعية في أواخر القرن التاسع عشر للميلاد إلى علو مكانة النقد الانطباعي في مقابل تراجع موجات التأييد للنقد الموضوعي، فأثبت النقد الانطباعي - بذلك - جدارته لما أسهم به من الكشف عن المتعة الذاتية المتوارية خلف قراءته وإدراك التذوق الجمالي، التأوي في ثنايا ألفاظه، وهذا دون الاعتماد على معايير وقوانين تقيد من حرية الناقد، أو تمنعه من هذا الانطباع، وهذه - في الحقيقة - هي صميم عمل الناقد الانطباعي الذي « يركّز على أسئلة يثيرها العمل عند قراءته ويحرك بداخله بعض الأسئلة: ما علاقة هذه الشخصية بي وما الذي تمثله لي، وهل حقيقي استمتعت بقراءة أو مشاهدة هذا العمل وهل حقّق لي اللذة...» (2). وهذا المنحى الانطباعي لما تتركه آثار العمل الأدبي في نفس عبد الملك مرتاض هو ما كان يدفعه لاختيار عمل بعينه دون سواه من مجموع أعمال أدبية كثيرة لتكون محلّ اهتمامه ودراسته الأدبية. وذاتية عبد الملك مرتاض التي تكاد تكون أبرز ما في كتاباته، هي ما يتقاطع مع الانطباعية في تعريفها، إذ يُعرّفها وغيلسي بأنها: « نقد ذاتي غاية إبراز صورة الأثر الانعكاسي للنصّ على الناقد، يقوم أساساً على الذوق الفردي بوصفه منطلقاً مباشراً لالتقاط التّموجات الجمالية للنصّ في كيفية انعكاسها على الذات الناقدة، مع تجاوز المعايير المتعارف عليها، وإسقاط الوساطة الموضوعية بين النصّ والناقد، وعدم التزام الناقد بتبرير الأحكام المجملّة التي يفرضي بها » (3). وهذا أمر في غاية الوضوح، ولا تكاد تخطئه العين في الدراسات الأولى لعبد الملك مرتاض حتّى بعد تحليله عن هذا المنهج وانتقاده له.

ويرى بعض الباحثين أنّ الأساس في كلّ عمل نقدي إنّما هو الأثر الانطباعي الذي يرتسم في نفس الناقد، ولا شيء غير ذلك، وفي هذا يرى - جول لوماتر - أنّ النقد الأدبي يتوقّف حصراً على

¹ - حسن ، (حسين الحاج -) : النقد الأدبي في آثار أعلامه ، (1996 م) ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، (لبنان) ، ط 1 ، ص : 79 .

² - صقر ، (أحمد -) : قراءة في تاريخ الحركة النقدية في القرن التاسع عشر، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية (مصر) على صفحة : (ahmedsaker.ahlamotada.net) .

³ - وغيلسي : النقد الجزائري المعاصر من اللانسونية إلى الألسنية ، مرجع سابق، ص 68 - 69 .

الانطباعية دون سواها من المناهج النقدية الأخرى، وذلك من خلال مقال يقول فيه: « النقد الأدبي لا يكون إلا انطباعياً »⁽¹⁾. ولم يكن عبد الملك مرتاض بمنأى عن التأثير بالمنهج الانطباعي والارتكان إلى أحكامه في تحليلاته للخطاب الأدبي، بل يمكن الجزم أنه أول ما عرف من المناهج وأول ما طبقه منها، ف « لقد استهل مرتاض مشواره النقدي، منذ بداية الستينيات، ناقداً انطباعياً (وإن لم يصدع بذلك)، وكان كتابه: (القصة في الأدب العربي القديم)، وشيء من كتابه: (نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر) حصداً مبكراً وسريعاً لهذا الاستهلال »⁽²⁾. ويختص منهجه هذا بخصائص نوردها من خلال بحثه حول (القصة في الأدب العربي القديم)، إذ اعتمد إثبات الشواهد إن كانت بأسلوبه الخاص أو بإنشائه نصاً موازياً إن كان الشاهد نثراً، وبعد عملية التحليل تأتي مرحلة الدراسة، والتي تعتبرها مجموعة من الأحكام الانطباعية المطلقة⁽³⁾. فشكّلت هذه الخصائص العامة الهيكل العام لتطبيق منهجه النقدي الانطباعي على ما يختاره من النصوص، مع سعي منه دائم إلى بيان أسبقيته في التحليل واجتراحه للمصطلحات التي يسعى بها للتفرد والتميز... وتتجلى أحكامه الانطباعية في عباراته النقدية التي تنحو منحى أدبياً صرفاً يظهر بها أحاسيسه ومدى تأثره بروعة ما يحس به من تلك النصوص دون توضيح موضوعي لأسس هذا التأثير.

وفيما يسمح به مقام هذا المقال نذكر هنا بعض هذه أحكامه الانطباعية التي يظهر من خلاله انتحائه هذا السبيل من النقد في بداياتها الأولى: ففي قصة قيس لبنى، يعتبر عبد الملك مرتاض - رحمه الله - أن: « شعر ابن زريح يفيض حباً، ويتجّرّ تهياماً، وينبجس لوعةً وصبايةً، وندماً وحنيناً. كأنّ أبياته بل كأنّ ألفاظه كتبت بمداد الحزن واللهفة والتّحبيب »⁽⁴⁾. فهذا وصف انطباعي واضح لما أحسه من شعر ابن زريح، وهو نقد لا يتأسس إلا على ما يشعر به الناقد، وبما يخلّفه ذلك الشعر من أحاسيس في وجدانه، دون أن يحدّد الأسس الموضوعية التي دفعت بتلك الانطباعات أن ترتسم في ذاته ويضيف في هذه الأوصاف التي يتجلى فيها الانطباع الصّرف في وصف أدبي واضح فيقول: « فحروف أبياته كأنّها دُموع غزار تتساقط، أو كأنّها سهام تُمضي فتصيب كلّ من صادفت منه جانباً. فهو يصطنع جميع ما يمكن أن يوجد في العربية من ألفاظ الحزن والحسرة واللهفة والحرمان... »⁽⁵⁾. فهذه أحكام تبتعد عن الموضوعية في الوقت الذي تدنو فيه من الانطباع الذاتي الواضح، وفي قصة جميل بثينة، يصف عبد

¹ - حسن، (حسين الحاج -): المرجع السابق، ص 81.

² - وغليسي: الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص: 33.

³ - يُنظر: وغليسي، (يوسف -)، نفس المرجع السابق، ص 33 - 35.

⁴ - مرتاض، (عبد الملك -): القصة في الأدب العربي القديم، (1968 م)، دار ومكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والنّوْزيع والنّشر، (الجزائر)، ط 1، ص: 305 - 307.

⁵ - نفس المرجع السابق، ص: 136.

الملك مرتاض بائية جميل بقوله: « ومن عجيب الأمر أنني لم أر قصيدة تُؤاخي هذه بحراً وروياً، إلا وهي خطيرة القيمة »⁽¹⁾. فيُصِرُّ بهذا حكماً عاماً أشبه بالقانون لما لا يُسغفه واقع الحال على تأكيده موضوعياً.

غير أن هذا الاهتمام بالمنهج الانطباعي الذي تجلّى بوضوح في العديد من بواكير دراساته النقدية لم يُشبع جذوة التفكير النقدي عنده، ولم يرو عطشه المنهجي فانتقل إلى سواه من المناهج، إذ بعد دراسته حول القصة والتأريخ لها في الأدب القديم بدأت « تخبو جذوة هذه الروح الانطباعية المشتعلة شيئاً فشيئاً؛ حيث لا نلمس لها إلا بعض الآثار القليلة المورّعة عبر كتابه اللاحق (نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر) »⁽²⁾. وما لبث أن حاد عنه، وراح ينعّت ممارسيه بالظلم والعدوان ويصف الانطباعيين من النقاد الكلاسيكيين بالتعصب وأنهم: « يتسلطون ظلماً وعدواناً على المؤلف، فيزعجونهم بالترهات طوراً ويُطرونهم بالمدح طوراً، ويقذفونه بالتجريح والقدح طوراً آخر دون أن يلتفتوا، أو يكادوا يلتفتون، إلى النص »⁽³⁾. ورغم هذا النقد اللاذع للانطباعيين إلا أنه مارس - بعد ذلك - أحكاماً انطباعية على النصوص التي درسها إبان دعوته إلى نبذ الحكم النقدي ... مما يعكس اضطرابه المنهجي في سعيه لامتلاك المنهج العلمي الذي يتجاوز به حدود الانطباعية إلى باحة الأحكام العلمية الدقيقة. وما لبث أن ركب موجة المنهج البنوي الذي صار " موضة " نقدية جديدة بحثاً منه عن موضوعية النتائج التي يقتضيها هذا المنهج، رداً بذلك على الأحكام الانطباعية التي سيطرت على الكثير من الدراسات النقدية، دون أن يكون لها أساس تُبرّر به تلك النتائج أو تحتكم إليه عند الخصومة، وصارت البنيوية موضةً منهجيةً جديدة في المناهج عند الغربيين، قبل أن تصل لوثتها إلى العرب بالترجمة والمثاقفة، ويرى جون ستروك أن « البنيوية لم تظهر فجأة في باريس، وما حدث في باريس في الستينات هو أن هذه المعرفة العادية تحولّت بقدرة قادر إلى شعار اتّخذه بعض الناس ووجدوه أمراً مثيراً فخلقوا منه موضة فكرية شاعت شيوعاً تجاوز حدود المعقول »⁽⁴⁾. ويكاد يُجمع الدارسون بلبه المؤرخون للحركة النقدية بالجزائر على قيادة عبد الملك مرتاض - رحمه الله - للبنيوية وما بعدها في الخطاب النقدي الجزائري، ولم ينصبّ خلفهم في هذا إلا على تحديد اسم الدراسة بالذات التي يُمكن اعتبارها أساس المنطلق التاريخي لهذه الريادة.

¹ - مرتاض، (عبد الملك -) : القصة في الأدب العربي القديم، المرجع السابق، ص: 100 .

² - وغيلسي: الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، مرجع سابق، ص: 37 .

³ - مرتاض، (عبد الملك -) : ألف ليلة وليلة (تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد)، (1993 م)، ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر)، د. ط، ص: 11 .

⁴ - ستروك، (جون -) : البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا، (1996 م)، ترجمة: محمد عصفور، عالم المعرفة العدد: 206 فبراير، (الكويت)، ص: 07 .

3 - التجريب النقدي للمنهج السيميائي :

عرفت السيميائيات اهتماماً بالغاً من قبل الباحثين على اختلاف تخصصاتهم العلمية، وذلك لانتساع مجالها المعرفي الذي يشمل حقولاً معرفية متعدّدة، وتأتي البحوث اللغوية في مقدّمة هذه المعارف وفي ذروة سنامها، وقد أثبتت السيميائيات قدرتها المنهجية على تحليل مختلف النصوص لاعتبار اللغة في ذاتها علامة سيميائية، مما جعلها في مقدّمة المناهج المعتمدة عند النقّاد لطواعيتها الإجرائية، وحضورها الدائم، في كلّ النصوص من منطلق ما أشرنا إليه منذ حين من اعتبار اللغة ذات بعدٍ سيميائي في الأساس، لتستوعب بذلك اهتمام الكثير من النقّاد في العالم العربي، وكذا النقّاد على السّاحة الجزائرية. ويأتي عبد الملك مرتاض في مقدّمة النقّاد الجزائريين الذين أوّلوا السيميائيات الاهتمام البالغ، والعناية اللازمة، فانعكس ذلك على مجموع دراساته وبحوثه النقّدية، تنظيراً وتطبيقاً .

وقد انطلق دوسوسير في رؤيته السيميائية من فكرة مفادها أنّ المشكل اللساني هو سيميائي قبل كلّ شيء. ممّا يجعل نظريته في مقدّمة الدّراسات السيميائية جنباً إلى جنب مع دراسة بيرس الذي يُعدّ مؤسساً للسيميائية وواضعاً لاسمها، لتتتالي بعدهما الدّراسات السيميائية، وتنتشر في أكثر من بلد ، أين أخذت الجمعيات العلمية تُعنى بهذا العلم، وترسخ مبادئه ، ولعلّ أقدم هذه الجمعيات: (الجمعية الدوليّة للدّراسات السيميائية (1969 م)) : (International Association for Semiotic Studies) ، التي تعكس تسميتها اتّساع مجال الدّرس السيميائي ليغدو عالمياً. وتشعّب موضوعات السيميائية وتناولها لمختلف أشكال العلامات، وتقاطعها مع الكثير من المجالات هو ما حمل الكثيرين على الاهتمام بها، فاعتمدت السيميائيات منهجاً في دراسة مختلف العلامات التي شملت، العلامات التي يستعملها الحيوان، والنبات، والأزياء، بل تعدّى ذلك إلى الاتّصال ما بين الخلايا الحيّة في اتّصالاتها الحيويّة وسماتها التّفاعليّة، ليصل مجال السيميائيات في عصر الاتّصال فيشمل الآلات في عصر الذكاء الاصطناعي، حيث أصبح للآلات رموزها وأشكال تواصلها، بل وسيميائيتها الخاصّة. فتجاوزت الدلالات السيميائية حدود الكائن الحيّ لتشمل كلّ شيء تقريباً، فلا يخلو شيء من دلالة، ومن أجمل الأمثلة وأطرفها على النّمودج السيميائي المعتمد على استخدام ألوان البطيخ كسلاح إبّان الانتفاضة الفلسطينية « فمن المعروف أنّه كان من المحظور على الفلسطينيين رفع العلم الفلسطيني، وكانت القوّات الإسرائيليّة تقبض على أيّ فلسطيني يفعل ذلك . فكان الفلسطينيون في غزّة، حينما تمرّ عليهم قافلة عسكريّة إسرائيليّة، يأتون ببطيخة ويقطعونها ويرفعون نصفها. والوان البطيخة هي ذاتها ألوان العلم الفلسطيني (أخضر وأحمر وأسود). ولم يكن بمقدور القوّات الإسرائيليّة أن تقبض على الفلسطيني بتهمة قطع البطيخ وإلّا

أصبحت أضحوكة العالم، رغم أن عملية قطع البطيخ أكثر عمقاً في رمزيتها النصائية من مجرد رفع العلم (فالسكين الذي يقطع يُذكر الجندي الإسرائيلي بما لا يُحب) «⁽¹⁾ .

وقد شكّل المنهج السيميائي مُستقرّ عبد الملك مرتاض المنهجي، ومحطّ رحله النقدي، إذ يتجلى هذا في كثرة ما أولاه من العناية في كتبه ومقالاته التي اتخذت من المنهج السيميائي منهجاً إجرائياً، حاول التجديد في مصطلحاته والتّظهير لمعالمه الإجرائية، وقد تحدّث معالم الاتجاه السيميائي لدى عبد الملك مرتاض منذ أواخر الثّمانينات، من خلال عددٍ معتبر من الدّراسات النّقدية النّظرية والتّطبيقية، التي غلب عليها الإجراء والتّطبيق فيما يظهر في عناوينها من قبيل ، ألفاظ : تحليل سيمائي، ودراسة سيميائية، ومعالجة سيميائية ... وغيرها من العبارات التي تشي بالاهتمام وتهدف للتّطبيق، وقد زاح في أغلبها بين المنهج السيميائي وغيره، اقتناعاً منه بجذوى المنهج التّكاملي، ومن هذه المؤلّفات على سبيل التّمثيل:

- 1 - ألف ليلة وليلة (تحليل سيمائي تفكيكي لرواية حمّال بغداد) 1989 م .
 - 2 - ألف - ياء (دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمّد العيد) 1992 م .
 - 3 - تحليل الخطاب السّردي (معالجة تفكيكية سيميائية مركّبة لرواية " زقاق المدق ") 1995 م .
 - 4 - السّبع المعلّقات (تحليل أنثروبولوجي سيمائي لشعرية نصوصها) 1999 م .
 - 5 - نظام الخطاب القرآني (تحليل سيمائي مركّب لسورة الرّحمن) 2001 م .
 - 6 - التّحليل السيميائي للخطاب الشّعري (تحليل مستوياتي لقصيدة شناسيل ابنة الجلي) 2001 م .
 - 7 - رحلة نحو المستحيل (تحليل سيمائي مركّب لقصيدة " رحلة المراحل " لسعد الحميدين) 2007 م .
 - 8 - (شعرية القصّ وسيميائية النّص " تحليل مجهري لمجموعة نقّاحة الدّخول إلى الجنّة ") 2014 م .
- وكما هو واضح في تتبّع عناوين هذه الكتب والدّراسات يظهر اعتماد المنهج السيميائي في عنوان الكتاب بشكلٍ يتحدّد معه المنهج المعتمد في حين يذكره في المؤلّفات الأخرى ببيان ما ارتضاه من نهجه العام يُطبّق من خلال بعض جزئيات المنهج السيميائي أو يتناول المنهج ذاته بالنّقد والمحاورة والنّصح والتّعديل ... ومن ذلك نقده لمصطلح السيميائية في صيغته هذه وبيان مخالفة بنيته الصّرفية لما تعرفه اللغة العربيّة وما ترتضيه قواعد اللسان العربي ، ووضع بديلاً عنه مصطلح السيمائية.

ويشير عبد الملك مرتاض إلى إيجابيات التّحليل السيميائي من حيث كونه فضاءً واسعاً وحرّاً قائلاً: « الأروع في السيميائية أنّك تستطيع أن تتّسمياً وحدك وأنت منغمس في إجراءاتها العامة (...) دون أن يجعلك ذلك مخالفاً عنها، أو مشاكهاً في الوقت نفسه، لسوائك في ممارستك لها، بحيث قد يمكن أن يكون

¹ - المسيري ، (عبد الوهّاب -) : العالم من منظور عربي ، (2001 م) ، دار الهلال ، القاهرة ، (مصر) ، ص : 13 .

لكلِّ محلِّ كُفءٍ سيمائيَّته الخاصَّة له (...) دون أن يكون ذلك خروجاً عن تأسيساتها العامَّة » (1) . ويوضِّح هذا المقال جنوح الكاتب نحو التَّحليل السِّمائي باعتباره إجراءً طيِّعاً قابلاً للتَّعدُّد والتَّنوع، ويفتح إمكانيَّة تعدُّد أشكال المنهج السِّمائيَّة بتعدُّد الباحثين فيها، دون أن يخرج عن أصل وضعه، مع حفاظ الناقد على رؤية التَّركيب بينه وبين مناهج أخرى. ويُعدُّ كتابه (ألف - ياء) البداية الأولى للإنتاج التَّطبيقي في ميدان الرِّاسات النَّقدية الحديثة التي اعتمد فيها المنهج السِّمائي، ويشكِّل جزءاً من مشروع نقدي ضخم، ونقطة نوعيَّة في التَّأسيس الفعلي للاتِّجاه السِّمائي والنَّقدي (2) .

ثانياً : مظاهر التَّغيُّر المنهجي من الانطباعيَّة إلى السِّمائيَّة وأسبابه:

من خلال ما تمَّ عرضه في القسم الأوَّل من هذا المقال، الذي رصدنا فيه المسيرة النَّقدية لعبد الملك مرتاض، وعرضنا من خلالها أهمَّ تغيُّراته المنهجية التي مرَّ بها في مسيرته النَّقدية، والتي توزَّعت بين المنهج الانطباعي والسِّمائي بحسب ما تفرضه النُّصوص المختارة وسياقات الكتابات ومقامات التلقِّي المنهجي، وقد لاحظنا تأثُّر عبد الملك مرتاض بالمنهج الانطباعي، وما كان له من السُّطوة على تفكيره المنهجي وكتاباته النَّقدية، ومؤلفاته العلميَّة، في بداياته النَّقدية ثمَّ تراجع عنه، بحثاً عن الموضوعية ونأياً عن الذاتية، لينتقل إلى المنهج السِّمائي الذي مزج بينه وبين المنهج النَّقدي، في دراساته بعد ذلك، واعتمد المنهج السِّمائي محطةً من محطات استقراره المنهجي التي عرف بها ناقدًا، وأسَّس لها نقداً، جمع فيه بين التَّنظير والتَّطبيق.

وأبرز مظاهر التَّغيُّر المنهجي الذي عرفته تجربة عبد الملك مرتاض النَّقدية، ما كان من تحوُّله عن موقفه الانطباعي ونقده اللاذع لمن اعتمده من النَّقاد، حتَّى وصل به إلى حدِّ نعتهم بالسلُّط والعدوان، ووصف أعمالهم النَّقدية بالبُعد عن حقيقة التَّفاعل مع النَّصِّ، بقوله إنَّ : « الكلاسيكيين الانطباعيين المتعصِّبين الذين يتسلَّطون ظلماً وعدواناً على المؤلِّف ، فيزعجون بالترهات طوراً ويُطرونه بالمدح طوراً، ويقذفونه بالتَّجريح والقبح طوراً آخر دون أن يلتفتوا، أو يكادوا يلتفتون، إلى النَّصِّ » (3) . وهذا القول يعكس أحد مظاهر التَّغيُّر المنهجي الذي لم يكن باتاً ليقينه بعدم النَّخْلِ المطلق عن الأحكام الانطباعيَّة، ولأنَّه مارس أحكاماً انطباعيَّة على نصوص مختلفة في الوقت الذي دعا فيه غيره إلى نبذ الحكم الانطباعي...

¹ - يُنظر : مرتاض ، (عبد الملك -) : تحليل النَّصِّ الشَّعري : بأيِّ إجراء ؟ ، ص 03 .

² - يُنظر : بوخاتم ، (مولاي علي -) ، الدَّرس السِّمائي المغربي ، (1995 م) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، (الجزائر) ، ص : 72 .

³ - مرتاض ، (عبد الملك -) : ألف ليلة وليلة (تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمَّال بغداد) ، (1993 م) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، (الجزائر) ، د . ط ، ص : 11 .

ولعلَّ سبب التَّحوُّل عن المنهج الانطباعي هو ما فرضته عليه الدِّراسة الأكاديميَّة، في حصوله على (الماجستير والدكتوراه) تحديداً، مما فرض عليه التَّركيز على التَّأريخ للظَّاهرة الأدبيَّة محلَّ دراسته مما أدَّى به إلى اعتماد المنهج التَّأريخي وتطبيقه على الكثير من النُّصوص، لكنَّ هذا لم يدم طويلاً لما تعرَّض له المنهج التَّأريخي من الانتقادات، إذ لم يسلم منذ نشأته من هجوم المعارضين له، لما رأوه فيه من قُصور ينفي عنه إمكانيَّة الاعتماد عليه وحده، وكان من أبرز هذه المآخذ على هذا المنهج التَّأريخي : قلة اهتمامه بالنَّص الأدبي من داخله، وكثرة اهتمامه بأشياء خارجة عن النَّص كسيرة مؤلِّفه، وملابساته، تأليفه، وبيئته، وغير ذلك فيما يصبُّ خارج اهتمامات النَّص، وبذلك لا يكشف عن خباياه، وبنيتة اللغويَّة، وخصوصيَّاته⁽¹⁾ .

كما أنَّ طموح عبد الملك مرتاض الذي كان لا يرى في نفسه مجرد مؤرِّخ للأدب بل ساعٍ إلى التَّأسيس لمنهج نقديٍّ جزائري هو ما حملته على الانتقال من منهج لآخر، وهو ما يلائم طبيعة عبد الملك مرتاض الجامعة، والجانحة إلى التَّميُّز والتَّفَرُّد وهو ما تشي به عباراته ولا تخفى على قراء كتبه وأبحاثه.

ولعلَّ من أبرز أسباب التَّعدُّدية المنهجية عند عبد الملك مرتاض في دراسته للنَّص الأدبي ترجع إلى القُصور الذي يعرفه المنهج المتبنَّى حال التَّطبيق الإجرائي، بل قد يكون هذا القُصور في الجانب النَّظري أيضاً، ممَّا يحمل النَّاقِد على الجمع بين منهجين أو أكثر أثناء التَّحليل، وهذا هو السَّبب الأبرز الذي حمل الكثيرين على القول بوجوب اعتماد المنهج التَّكاملي، الذي يَسُدُّ فيه كلُّ منهج خلل المنهج الآخر، وذلك بجمع المنهج التَّكاملي لشتات المناهج والتَّلفيق بينها . ولعلَّ هذا أيضاً ما حمل نعيم اليافي على القول بعدم اعتماد منهج واضح أثناء التَّحليل، فيكون أحسن منهج هو اللامنهج، وهو وجه آخر لتعريف المنهج التَّكاملي. الذي يقوم على أكثر من طريقة في الاستدلال والبرهنة، بما لا يتناقض مع العقل. ولبيان هذا السَّبب في تعدُّدية المنهج عند عبد الملك مرتاض نذكر بعض الإشكالات النَّظريَّة والتَّطبيقيَّة للنَّقد السِّيميائي، باعتباره أحد أبرز المناهج التي تبناها في دراساته واختارها عنواناً للعديد من كتبه ...

ورغم سعي عبد الملك مرتاض للتَّنظير للمنهج السِّيميائي وتصحيح مصطلحاته، والتَّجريب للمتاح منه، فإنَّ المنهج السِّيميائي يبقى - كغيره من المناهج - قاصراً عن إدراك مقاصد النَّاص من نصِّه، ومن أبرز الإشكالات النَّظريَّة التي تواجهها السِّيميائيَّة هي ما أجمله " بشير تاويريريت " بقوله : « إنَّ السِّيميائيَّة باتجاهاتها المتباينة تبقى مجرد اقتراحات أكثر من كونها مجالاً معرفياً متميِّزاً »⁽²⁾ . وذلك

¹ - يُنظر : قصاب، (وليد -) : مناهج النَّقد الأدبي الحديث - رؤية إسلامية، دار الفكر، دمشق، (سورية)، ص : 32 .

² - تاويريريت، (بشير -) : السِّيميائيَّة في الخطاب النَّقدي المعاصر ، (2004 م) ، مجلَّة علامات ، النَّادي الأدبي الثَّقافي ، جَدَّة ، (السَّعوديَّة) ، مج 14 ، الجزء : 54 ، شَوَّال 1425 هـ ، ديسمبر، ص : 193 - 195 .

لاضطراب مفاهيمها، وتباين اتجاهاتها، وتعدد مبادئها، واختلاف أقطابها، فضلاً عن تعدد مصطلحاتها وتشابكها، واختلاف أيديولوجيات منظرها ... غير أن هذه الانتقادات النظرية كلها لم تمنع عبد الملك مرتاض من الانتقال عن هذا المنهج إلى غيره بسهولة، بل رآه فيه المجال الرّحب ليرتب مفاهيمه المضطربة، ويصحّح مصطلحاته المغترية، ويراجع أيديولوجياته الخربة.

ولجوء عبد الملك مرتاض إلى استعمال منهج إجرائي آخر إلى جانب المنهج السيميائي أحد الأدلة الواضحة على قصور المنهج السيميائي وعجزه - وحده - عن تحليل النصوص، ممّا اضطرّ عبد الملك مرتاض إلى التركيب المنهجي، يظهر في صورة جلية بعناوين كتبه، التي ورد فيها هذا التركيب بالعبارات الآتية: (تحليل سيميائي تفكيكي، معالجة تفكيكية سيميائية مركبة، دراسة سيميائية تفكيكية)، ويؤكد هذا القصور بشير تاويريريت بقوله: «إنّ هذا التّضافر بين السيميائية والتفكيكية في عملية إجرائية واحدة نعدّه - من دون هواده - مغالطة نقدية، لأنّها تكشف عن قصور الحقلين، ويتمظهر في ذلك التركيب الاستدعائي بين السيمياء والتفكيك، فلو كانت السيميائية قادرة على استنباط الرّوح الجمالية للنصّ ما كان مثل هذا الاستدعاء» (1).

كما نجد بين النقاد اختلافاً بيناً على مستوى التطبيق للمنهج السيميائي، إذ لا توجد آلية واحدة منقّح عليها سلفاً في نقد النصّ الأدبي على ضوء مبادئ هذا المنهج، وذلك لأنّ «السيميائيات ليست تياراً واحداً منسجماً، وليست فكرة معزولة، كما أنّها ليست نظرية جاهزة محدّدة من خلال مفاهيم موحّدة وموحّدة» (2). ولا تخرج عن كونها كشافاً واستكشافاً «لعلاقات دلالية غير مرئية من خلال التّجلي المباشر للواقعة. إنّها تدريب للعين على النقاط الضمني والمتواري والمتمتع، لا مجرد الاكتفاء بتسمية المناطق النصّية أو التعبير عن مكونات المتن» (3). غير أنّ إشكالات النقد السيميائي لا تنبثق كليّة من تلك الإجراءات التطبيقية «وإنّما تنبثق أيضاً من قصور المفهوم الذي يشغله النقد السيميائي، لأنّ الإجراء التحليلي ما هو إلّا معلول أو نتيجة لعلّة» (4).

ومن أسباب التعددية المنهجية أيضاً ما يفرضه مبدأ التلقّي عند الطّلب، ويظهر ذلك في علاقة الطّالب بأستاذه وتأثره به، ممّا قد يحمله على تبني بعض أفكاره والدعوة إليها، فضلاً عن تبني منهجه وتطبيقه إجرائياً على النصوص المختارة، فقد «كان لتأطير المستشرق الفرنسي " أندري ميكائيل " (André Mickaël) لأطروحاته الموسومة بـ: فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931 - 1954م)، والتي

¹ - نفس المرجع، ص: 197.

² - بركراد، (سعيد -) : السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، (2012 م)، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، (سورية)، ص: 11- 12.

³ - نفس المرجع، ص: 15.

⁴ - تاويريريت: السيميائية في الخطاب النقدي المعاصر، المرجع السابق، ص: 196.

نوقشت بجامعة السوربون (1983 م) الدُّور البارز في تعرُّف باحثنا بأستاذه عن قرب، والذي دعاه بدوره إلى الاحتكاك بأساتذة فرنسيين آخرين، والاطِّلاع على عطائهم الفكري، وحضور محاضرات الجامعات والمعاهد الفرنسيَّة، وهناك في فرنسا، ابتدأت مرحلة جديدة أكبر تحوُّل في مسار " عبد الملك مرتاض " النِّقدي ، والمسار النِّقدي الجزائري عموماً ، والذي عاد معبأً بأحدث المفاهيم والنُّظريَّات النِّقديَّة والمصطلحيَّة الغربيَّة ، لتكون بذلك ثورة حدثيَّة عارمة في الخطاب النِّقدي الجزائري⁽¹⁾ . فكان هذا الإشراف أحد دوافع التَّأثُّر الذي يُمكن رصده . فيعتبر من بين الأسباب في اختيار منهج معيَّن تزامنه مع اهتمامات الباحث في فترة تاريخيَّة معيَّنة، كاهتمام عبد الملك مرتاض بالمنهج التَّاريخي في مرحلة معيَّنة من مسيرته الأكاديميَّة، تخلَّى فيها عن منهجه السَّابق (المنهج الانطباعي) أو كاد، وذلك ما يُشير إليه وغيلسي بقوله : « [والانطباعيَّة] لم تستغرق من مرتاض إلاَّ حيزاً نقدياً محدوداً، وهذا قبل أن يهتدي إلى المنهج التَّاريخي الذي تزامن مع انشغالاته الأكاديميَّة »⁽²⁾. وهكذا كان دأب عبد الملك مرتاض - رحمه الله - في انتقالاته المنهجية خاضعاً لما يستجدُّ من المعارف النِّقديَّة، متفاعلاً معها أخذاً وعطاءً، نقداً ومثاقفة ساعياً إلى التَّجديد غير راضٍ بالركون .

ولعلَّ من الأسباب الموضوعيَّة في النُّعديَّة المنهجية ما نجده من رغبة عبد الملك مرتاض في مساهمة التطوُّر المنهجي، ورفض التَّوقُّع، والاقتصار على المنهج الواحد عند التَّحليل والدراسة. ويُمكن أن نُضيف لهذه الأسباب كلّها التطوُّر الفكري الذي يطال مسيرة الباحث ويحمّله على تتبُّع الجديد وركوب موجة الوافد من النُّظريَّات والمناهج ممَّا يُحَيِّن به معارفه ويُصحِّح به مساره ومسيرته.

خاتمة :

حاولنا في هذه الدِّراسة الإجابة عن إشكاليَّتين رئيسيَّتين تتمثَّلان في محاولة معرفة مظاهر التَّغيُّر المنهجي في التَّجربة النِّقديَّة لـ عبد الملك مرتاض، والبحث في أسباب التَّعدُّد المنهجي عنده، وذلك بتتبُّع تاريخيٍّ لتجربته النِّقديَّة، وخرجنا ببعض النُّتائج التي نوجزها في الآتي :

- اعتماد عبد الملك مرتاض للمنهج الانطباعي في بدايات مسيرته النِّقديَّة، يكشف من خلاله ما يرتسم في ذاته من انطباعات، مع رغبة في تطوير آليَّاته المنهجية وتحديثها باستمرار .
- اتَّخاذ المنهج السِّيميائي كأحد أبرز المناهج التي اعتمدها في الكثير من دراساته وأبحاثه لملاءمتها لجميع النُّصوص الأدبيَّة باعتبار اللغة ذاتها بعد سيميائي في الأساس.
- المزوجة والتَّركيب بين أكثر من منهج في الدِّراسة الواحدة كالجمع بين السِّيميائيَّة والتَّفكيكيَّة ...

¹ - نمره ، (محمَّد -) : التَّأثيرات الأدبيَّة الغربيَّة في الخطاب النِّقدي عند عبد الملك مرتاض - البنيويَّة أنموذجاً ، مرجع سابق ، ص : ج .

² - وغيلسي : الخطاب النِّقدي عند عبد الملك مرتاض ، مرجع سابق ، ص : 37 .

- سعيه الدائم للإضافة والتجديد وعدم الركون لمنهج بعينه .
- مواكبة عبد الملك مرتاض - رحمه الله - لمستجدات النقد في الساحة النقدية العربية، وتبنيها لما يراه مناسباً في تحليل ما يختاره من نصوص.
- عدم القبول بمسلمات غيره فيما يقتضيه أي منهج، سواء على مستوى المصطلحات أو التتظير أو الإجراء .

ونشير في الختام إلى أن عبد الملك مرتاض - رحمه الله - قد تجاوز في ممارساته السيميائية الأخيرة تحليل الخطابات، إلى مجالٍ أوسع وأرحب استعان فيه بالأنثروبولوجيا، في دراسة الطقوس، واللباس، والحلي، والأمثال الشعبية والعادات والتقاليد ... وساهم في إثراء الساحة النقدية بزخم من المؤلفات والدراسات النقدية التي تشهد بطول نفسه البحثي، واستبساله في الدفاع عما يؤمن به ويرتضيه، وسعيه للكمال فيما يبحث عنه من تكامل المناهج وتضافرها. إذ أوضحت نتائج هذه الدراسة نجاعة المنهج المركب عند عبد الملك مرتاض في تعميق التأويل والتحليل، ونأيه عن الفهم الأحادي القاصر، وعن السقوط في التلفيق، كنتيجة لتجربته الطويلة في التعامل مع النصوص، وكاستجابة لما يقتضيه النص من مرونة في المنهج لاستيعاب عطائيه اللامتناهية. والحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع:

- 01 - بنكراد ، (سعيد -) : (2012 م)، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، (سورية) .
- 02 - تاوريريت ، (بشير -) : (2004 م)، السيميائية في الخطاب النقدي المعاصر ، مجلة علامات، مج 14 ، الجزء:54، سؤال 1425 هـ ، ديسمبر ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، (السعودية) .
- 03 - بوخاتم ، (مولاي علي -) : (1995 م)، الدرس السيميائي المغربي، ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر) .
- 04 - بن زايد ، (عمّار -) : (1990 م)، النقد الأدبي الجزائري الحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب، (الجزائر) .
- 05 - حسن ، (حسين الحاج -) : (1996 م)، النقد الأدبي في أثار أعلامه ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، (لبنان).
- 06 - ستروك ، (جون -) : (1996 م)، البنيوية وما بعدها من ليفي شتراوس إلى دريدا ، ترجمة : محمد عصفور ، عالم المعرفة العدد : 206 فبراير ، (الكويت) .
- 07 - صقر ، (أحمد -) : قراءة في تاريخ الحركة النقدية في القرن التاسع عشر، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية (مصر) على صفحة: (ahmedsaker.ahlamotada.net) .
- 08 - فولفجانج ، (إيستر -) : (1978 م)، فعل القراءة ، نظرية في الاستجابة الجمالية ، ترجمة : د . عبد الوهاب علوب ، المجلس الأعلى للثقافة .
- 09 - قصاب ، (وليد -) : مناهج النقد الأدبي الحديث - رؤية إسلامية ، دار الفكر، دمشق، (سورية) .

- 10 - مرتاض ، (عبد الملك -) : (1968 م) ، القصّة في الأدب العربي القديم، دار ومكتبة الشركة الجزائرية للتأليف والترجمة والطباعة والتوزيع والنشر ، (الجزائر) .
- 11 - مرتاض ، (عبد الملك -) : (1993 م) ، ألف ليلة وليلة (تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد) ، ديوان المطبوعات الجامعية، (الجزائر) .
- 12 - مرتاض ، (عبد الملك -) : (2010 م) ، في نظرية النقد ، دار هومة ، (الجزائر) .
- 13 - المسيري ، (عبد الوهاب -) : (2001 م) ، العالم من منظور غربي ، دار الهلال ، القاهرة ، (مصر) .
- 14 - نمرّة ، (محمّد -) : (2012 م) ، التأثيرات الأدبية الغربية في الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض - البنيوية أنموذجاً ، إشراف: د . أحمد عزوز ، مذكّرة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير (تخصّص : الدّراسات الأدبيّة المقارنة في الأدب الجزائري الحديث) ، كلية الآداب واللغات ، قسم اللغة العربيّة وآدابها ، جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف، (الجزائر) .
- 15 - وغيلسي ، (يوسف -) : (2002 م) ، النقد الجزائري المعاصر من "اللائسونية" إلى "الألسنية"، إصدارات رابطة الإبداع الثقافيّة، كلية الآداب واللغات، جامعة قسنطينة، (الجزائر) .
- 16 - وغيلسي ، (يوسف -) : (2002 م) ، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض (بحث في المنهج وإشكاليّاته) ، إصدارات رابطة إبداع الثقافيّة، (الجزائر) .